ملف خاص

رؤية محمد حسن بريغش النقدية للقصة الإسلامية

لمحمد حسن بريغش - رحمه الله - حس إسلامي متميز جعله يقدم كثيرا من التناولات النقدية في الشعر والقصة وأدب الأطفال، في ضوء التصور الإسلامي، وقد كشف عن وجهة نظر واضحة في هذا المجال، ترفدها قراءات عديدة في فنون الأدب المختلفة، نصوصا ونماذج، بينما كان اتصاله بنظريات الأدب ومناهجه النقدية بحاجة إلى المزيد الذي لم تسمح له به حياته القصيرة .

وسأشير إلى بعض جهوده في مجال نقد القصة والرواية والقصة القصيرة) من خلال كتابيه : « **في القصة الإسلامية المعاصرة** » ١٩٩٢م و « **دراسات في القصة الإسلامية المعاصرة** » ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م، اللذين يتجلى فيهما جهد قرائي نقدي طيب، فقد عرض فيهما لإحدى عشرة رواية، وثلاث مجموعات قصصية، وأكثر من نصف هذه الروايات والمجموعات لنجيب الكيلاني، كما تناول في هذين الكتابين بعض الدراسات النقدية التي دارت حول الرواية، بالإضافة إلى دراسة حول كتاب الدكتور نجيب الكيلاني « حول المسرح الإسلامي » .

وهذان الكتابان برغم أنهما صدرا في تاريخين مختلفين، لكن المدى الزمني بينهما لا يتجاوز العامين، مما يجعلنا نعتبر ثانيهما امتدادا لأولهما فكريا، والموضوع واحد، فهو محاولة لقراءة عدد من الروايات المعاصرة والمجموعات القصصية ذات التوجه الإسلامي، والكاتب يبتغي التأصيل للقصة الإسلامية من وراء هذه المحاولة، وإن لم يتضح جيدا ما يمثل ذلك لديه، حتى إن اتخاذ عنوان أساسي للكتابين « نحو أدب إسلامي »، يمكن أن يعد كاشفا عن هذه المحاولة تتغياه، فما تزال الأصول والأسس للقصة الإسلامية بحاجة إلى جهود للكشف عنها، وبلورتها، وتقديمها للقراء والمهتمين بالأدب الإسلامي ومريديه، للإسهام في تشكيل نظرية الأدب الإسلامي بصفة عامة، كما أن عنواني الكتابين لا يكشفان عن فارق بينهما في طريقة العرض والمعالجة، بالإضافة إلى أن مادة الكتابين تؤيد ذلك.

بقلم : د سعد أبو الرضا

منهج بريغش النقدي

وليس هناك منهج واضح محدد ينتهجه الأستاذ محمد حسن بريغش في تناوله للأعمال القصصية، وإنما هي ملاحظات على الجوانب الفكرية، ومدى موافقتها للتصور الإسلامي [١]، وذلك مما أشرت إليه في بداية هذه الدراسة فيما يتصل بالحس الإسلامي المتميز للأستاذ محمد حسن بريغش، فهو يقوم بتلخيص العمل القصصي، ويناقش بعض القضايا المضمونية خلال ذلك، ثم في النهاية يبدي وجهة نظر مختصرة في نهاية التلخيص تتعلق بالنواحي الفنية وهي في الحقيقة لم تنل من اهتمامه إلا أقل القليل، الذي لم يظهر إلا في ذكر بعض المصطلحات الفنية، التي لم ترتبط لديه بتحليل يكشف عنها [٢] .

وبرغم أهمية هذا التوجه الفكري نحو المضمون، لكن الاهتمام بإبراز الجوانب الفنية في المعالجات النقدية لا يقل عنه أهمية، لأن الأعمال القصصية تجل فني لهذه الجوانب الفكرية، كما تكشف عن قدرة المبدع في هذا المجال . ليأتي الناقد الأدبي فيبرز كيفية جلاء الوسائل التعبيرية الفنية لهذا الفكر، من هنا فإن الاقتصار على أحد هذين الجانبين، أو عدم موازنة الناقد بينهما في الكشف عنهما خلال تفسيره للعمل الأدبي ملمح يمكن أن يمس جوهر العملية النقدية نفسها .

موقفه من النقد عند الآخرين

ويتصل بما سبق موقف محمد حسن بريغش من النقد الغربي بصفة عامة، فهو يجعله في مقابل الاستفادة من القرآن الكريم والحديث الشريف والتراث العربي، لذلك فهو ربما يستبعد تأثر الأدب الإسلامي بهذا النقد الأجنبي وأسسه الفنية، بل يرى أن أعداء هذا الأدب الإسلامي يضغطون على الأدباء الإسلاميين بالتقليل من قيمة أعمالهم الأدبية في ضوء قيم النقد الغربي الذي لا تتفق نصوصهم الأدبية مع شروطه الفنية، وقواعده « التي ترجمها العلمانيون العرب ليحاكموا بها أدبنا، ويصنفوا على أساسها نصوص هذا التراث الأدبي العظيم »[٣] .

لكنني أعتقد أن هذه القضية يجب أن ينظر إليها بتصور آخر، فالنقد الأدبي علم من العلوم الإنسانية، وهو لا يتشكل إلا بالجهود الإنسانية الفنية في مختلف الآداب والفنون، وإن أي نقد أدبي في أي مكان لا يمكن أن يعيش بمعزل عن غيره، بل لا ينمو إلا باتصاله بغيره من نظريات النقد وفنون الأدب في أي مكان من العالم، وباتصاله بغيره من العلوم الإنسانية، بذلك يتكامل صرح النقد الأدبي بالنسبة لأي منهج أو فن أو لغة أو وطن، وهذا الاتصال بين النقد الأدبي لدينا وبين ما عند الآخرين في هذا المجال دليل حياة وتقدم ونمو في الوقت نفسه .

بل إن نظرية الأدب الإسلامي لن تتشكل إلا في ضوء التصور السابق، وتفاعل ما لدينا من أسس وأصول نقدية قديمة وحديثة مع مالدى الآخرين من أصول وأسس ومعارف، بشرط ألا يخالف ناتج التفاعل شرعا، أو يتجاوز قيمة إسلامية .

يضاف إلى ما سبق أننا بحاجة إلى دراسات مستفيضة تكشف عن القصة في القرآن الكريم والحديث الشريف تحليلا ودرسا، لتقدم من الأسس ما يشكل أصول القصة الإسلامية، على أن تتآزر وتتواصل هذه الجهود مع ما تقدمه المتغيرات والمناهج النقدية المختلفة، وكل ذلك في ضوء التصور الإسلامي .

من هنا لا تصبح الشروط والقواعد النقدية الغربية هي الأساس، وإنما هي عامل من العوامل التي تتآزر مع ما لدينا للإعلاء من القيمة الفنية للقصة الإسلامية، ولذلك وجدنا محمد حسن بريغش في مكان آخر يدعو إلى الاستفادة مما عند الغرب من أسس في هذا المجال، وهي دعوة تبدو على استحياء في كتابه الثاني [٤]، عندما يرى «أن نأخذ من وسائلهم ما يناسبنا ويوافق معتقداتنا » .

أقول ذلك برغم أن هناك كتابات متعددة في هذا المجال منها : « القصة في الحديث النبوي الشريف » للدكتور

محمد حسن الزير، و« خصائص القصة الإسلامية » للدكتور مأمون فريز جرار .

إسلامية القصة:

وقد تجلى في كتابي الأستاذ محمد حسن بريغش اللذين أشرت إليهما في مطالع هذه الدراسة حرصه على التصور الإسلامي في هذا المجال فكرا وأدوات، كما وضحت حماسته نحو هذا التوجه، لكن التمهيد لكتابه الثاني : «دراسات في القصة الإسلامية المعاصرة »، الذي شغل أكثر من ثلاثين صفحة، وتحدث فيه عن ملامح وشروط القصة الإسلامية، وآفاقها، وموضوعاتها، وواقعها، وسلبياتها، وإطارها الفني، لم يتضح فيه ما كنا نبتغيه من تقديم تصور للأدوات والوسائل التعبيرية التي يمكن أن نعدها لصيقة بالتصور الإسلامي للقصة، وكاشفة عنه، بل إن الصلة قد تبدو منفكة بين هذا التمهيد وما تلاه من دراسات في الكتاب نفسه عن الروايات والقصص التي تناولتها هذه الدراسات، اللهم إلا حماسته للتصور الإسلامي في مجال المضمون، واهتمامه به على حساب قلة الاهتمام، بالشكل الذي جاء على استحياء كما أشرت سابقا، والاهتمام بالمضمون شيء طيب، لكنه لا يكفي في مجال النقد الأدبي الكاشف عن قيمة العمل الفني .

من ثم فقد عرض محمد حسن بريغش لكثير من القضايا والمشكلات التي عالجتها هذه الروايات، وعلى سبيل المثال : ففي تناوله لرواية «الطريق الطويل » لنجيب الكيلاني، أشار بريغش إلى مشكلات الوطن عامة التي حاول الكيلاني أن يربط بينها وبين مشكلات الريف في مصر، وقد تمثل ذلك في سيطرة المستعمر واستغلاله لموارد مصر، وهيمنته على شؤون الحكم فيها، وخلال ذلك يصور تململ الشعب، وظهور الجيل الجديد الذي يقاوم بالمظاهرات، والاضطرابات، ثم تصدي الفدائيين للمستعمر، كما يشير إلى كشف الكيلاني عن قضية فلسطين، خلال المشكلات التي كانت تدور على ألسنة الناس، وهكذا يتجلى كثير من الجوانب السياسية والاجتماعية المقترنة ببعض اللمسات العاطفية .

من اليمين بريغش والكيلاني والقاعود في مدينة الرياض ١٤١١هـ

ويأخذ بريغش على نجيب الكيلاني في هذه الرواية ربطه بين ثورة عرابي والثورة التي قادها جمال عبدالناصر، والتي بفضلها أصبحت مصر في نظر الكيلاني جديرة بتضحية أبنائها من أجلها، كما ينتقده في ولائه لهذه الثورة، ويراه قد تطرف في ذلك، حتى كاد يرى كل العهود السابقة منذ القدم عهودا غريبة على مصر، وبذلك يتهمه بالفرعونية [٥]، من ثم يعيب عليه أنه لم يهتم بمصر الإسلامية قائلا : « أين الإسلام وعهوده، وكيف كانت مصر لو لم تكن إسلامية، ومتى كانت مصر ذات معنى تستحق التضحية بغير الإسلام »[٦] .

ولست هنا في مجال الدفاع عن نجيب الكيلاني، لكنني أرى أن موقف بريغش هنا ليس إلا ملمحا من ملامح حماسته لإسلامية الأدب، لأن رواية « الطريق الطويل » لا تتضمن، ولا يمكن أن تشي بما يمس إخلاص الكيلاني لإسلامية مصر، وولائه للأدب الإسلامي، بالإضافة إلى أن محمد بريغش نفسه ختم كتابه هذا بعرضه لرواية « ملكة العنب» لنجيب الكيلاني، التي تقوم على نجاح شخصية " براعم " فتاة قرية "الربايعة"، صاحبة الشهادة الإعدادية، التي استطاعت بعد وفاة والدها أن ترعى أختيها ووالدتها، وأن تدخل زراعة العنب إلى قريتها، بل وتتوسع فيها، وتكتسب كثيرا من خبراتها على مستوى قريتها والقرى المجاورة

زراعة وبيعا وتجارة، حتى أصبحت بحق "ملكة العنب"، وهي في الوقت نفسه تتعاون مع قريتها، وتواجه مشكلاتها المختلفة، من أجل خدمة أهلها جميعهم، حتى حققت مكانة متميزة اجتماعيا وإسلاميا، بتحقيق الخير، ورعاية شؤون قريتها وأهلها، حتى لو تطلب ذلك منها أن تتصل بأكبر المسؤولين في المحافظة والدولة كالمحافظ وأعضاء مجلس الشعب، وخلال ذلك عالج الكيلاني - كما قرر بريغش - مشكلات البطالة والإدارة الحكومية والمحلية، ووضع بعض دول الخليج العربي السياسي، ومشكلات المصريين في العراق، وغيرها، وهكذا امتزج الحدث السياسي بالحدث الاجتماعي، بل وبالنواحي الوجدانية أيضا، خاصة عندما انتهت الرواية بزواج الشيخ محمد المدرس وخطيب المسجد ببراعم، وقد كانت مناقشته لمشكلة زكاة العنب الشرارة التي أثارت كثيرا من المشكلات التي ناقشها الكاتب نجيب الكيلاني، والناقد محمد حسن بريغش خاصة الديمقراطية وعلاقة الحاكم بالمحكوم .

ولقد أثنى بريغش على هذه الرواية : أحداثا ورسم شخصيات، وقضايا ولغة، حتى رأى أنها جديرة بأن تكون نبراسا أمام كتاب القصة، ومثلا للكاتب في بناء أدبه الإسلامي [٧].

هكذا يتضح تباين نتاج نجيب الكيلاني في مدى تمثيله للرواية الإسلامية، وأنه لم يصل إلى مستوى التمثيل المطلوب إلا بعد مروره بتجارب عديدة، شأنه كأي فنان في ذلك، من ثم فإن النظرة العادلة يجب أن تقرن تجارب الأديب في أعماله الفنية بعضها ببعض حتى تتكامل صورته الفنية، كاشفة عن ولائه وتمثيله للأدب الإسلامي والدخول في دائرته، لا أن نقصيه في تجربة ما عن هذه الدائرة، وندخله فيها بناء على تجربة أخرى، على أن تكون غاية الناقد الإسلامي محاولة تفسير العمل الأدبي رؤية وأداة، بغية الإسهام في الكشف عما يمكن أن نضيفه إلى نظرية الأدب الإسلامي، وما يمكن أن تقدمه هذه النظرية في هذا المجال، ودون أن يستغرق الناقد توجيه الاتهامات إلى الأديب وعمله، فالسرائر علمها عند الله، وما لم يقله الأديب لا نحاسبه عليه .

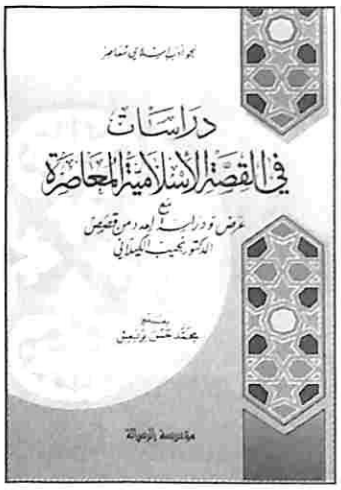

وإني لأحمد لمحمد حسن بريغش - رحمة الله عليه - انتقاده الأدباء الإسلاميين في حرصهم على الاتصال بالآداب والفنون الغربية ومعرفتها دون أن يعرفوا الإسلام وأصوله بالدرجة نفسها أو أكثر [٨]، فالأديب الإسلامي والناقد الإسلامي كلاهما مطالب بالإلمام بأمور دينه، وتوثيق صلته بالإسلام وقيمه ومبادئه، وفي الوقت نفسه، يتصل بالآخر ليستكمل ما يمكن أن يحتاج إليه من وسائل وأدوات فنية تعينه على أداء دوره كأديب أو ناقد إسلامي، والحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أولى بها .

هكذا استطاع محمد حسن بريغش بكتابيه « فن القصة الإسلامية المعاصرة » و « دراسات في القصة الإسلامية المعاصرة » أن يساهم في إضاءة عدد من الروايات الإسلامية والمجموعات القصصية كنماذج يمكن أن تمثل القصة الإسلامية في مرحلة من مراحلها المعاصرة، وفي وقت يحتاج فيه كثيرون من المهتمين بالأدب الإسلامي وغيرهم إلى هذه النماذج، كعلامات للإنسانية وهي تتطلع إلى النقد الراقي والكلمة الطيبة، والتوجيه الفني المهذب الذي يثري العقل ويمتع الوجدان . ■

الهوامش:

(١) انظر على سبيل المثال : محمد حسن بريغش، القصة الإسلامية المعاصرة، دار البشير للنشر، عمان، الأردن، ١٩٩٢م، ص ٩٠، ٩١، ٩٢ .

(٢) انظر السابق نفسه، ص٨٦ وغيرها . وكذلك انظر محمد حسن بريغش، دراسات في القصة الإسلامية المعاصرة، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ١٩٩٤، ص ٣٠، ٣١، ٣٦، ٤٠، ٤٥، ٤٦ .

(٣) القصة الإسلامية المعاصرة، ص٩، ١٤ . وكذلك دراسات في القصة الإسلامية المعاصرة، ص٤٦، ٦١ .

(٤) انظر دراسات في القصة الإسلامية المعاصرة، ص٨٣ .

(٥) انظر دراسات في القصة الإسلامية المعاصرة، ص٤٣ .

(٦) السابق نفسه والصفحة نفسها .

(٧) السابق نفسه، ص١٤٦ .

(٨) انظر السابق نفسه ص ٤٧، ٤٨ .